الأستاذ أحمد توفيق المدني الصحفي المؤرخ

*أ.محمد الصغير بن لعلام**

الأستاذ أحمد توفيق المدني: الصحافي المؤرخ 1889-1983 قمة من قمم الفكر والسياسة والنضال والجهاد ليس في الجزائر فحسب بل على مستوى العالم العربي، جبل شامخ تشرئب قمته نحو السماء نحو الأعلى في السياسة والفكر والصحافة علم من اعلام الاصلاح بل من مؤسسي الحركة الإصلاحية في الجزائر، 80 سنة من الكفاح والنضال والجهاد علامة بمعنى الكلمة موسوعى من نمط علمائنا من السلف الصالح.

---

* كاتب صحفي وباحث.

جزائري تونسي أو تونسي جزائري كما شئتم انتقلت أسرته إلى تونس فرارا من البطش والفقر الذي مارسه الاستعمار الفرنسي وخاصة بعد فشل ثورة المقراني 1871 فولد في تونس في نوفمبر 1889 طرق باب الجامع الأعظم جامع الزيتونة فنهل من علم علمائه وأشياخه وكان ذا ذكاء مميز ومعتدا بنفسه، استهوته السياسة فانخرط فيها في تونس فهو كما كان يلقب مناضل القطرين فاكتملت فيه صفات قلما تجتمع في واحد فهو صحفي لامع وإصلاحي متحمس، مؤرخ ومناظر من الطراز الأول مجادل ذو نفس طويل، اللغة بين يديه وعلى لسانه طيعة لينة يقولها كيف شاء فكان قلمه وكان لسانه السلاح الذي حارب به الاستعمار أثناء الاحتلال وفي خظم الثورة المباركة.

ادخلته فرنسا السجن في تونس وهو ابن 16 سنة ومكث في سجن انفرادي أربع سنوات وهو لما يبلغ العشرين من عمره ثم طردته إلى الجزائر في سنة 1926 كما أخبر بذلك ويقول في هذا أخذتني فرنسا على الساعة الواحدة والنصف من البيت أي البيت العائلي في تونس وسلمت لمحافظ الشرطة في قسنطينة بوصل كأنني بضاعة.

وقد استقبله الشيخ عمار العطوي أو مهري إمام مسجد الخروب ووالد أستاذنا عبد الحميد مهري الذي كان يعرفه عندما كان يدرس في الزيتونة وهو الذي أوصله إلى بقية الإخوة في قسنطينة وأول هؤلاء العلامة الشيخ مبارك الميلي رحمه الله.

ومنذ الوهلة الأولى من وصوله إلى الجزائر نستشف أو نكتشف براعة الأستاذ توفيق المدني في الكتابة وصياغة الجمل وندرك بالفعل أنه قد بلغ رشده في الكتابة وخاصة في الصحافة في تونس قبل أن يصل إلى الجزائر أقول نكتشف براعته في هذه الجمل التي أوردها في مذكراته على لسان الشيخ مبارك الميلي رحمه الله يقول "جاء لي مشرق المحيا باسم الثغر يتألق في وجهه الصبوح نور الإيمان وصدق العزيمة وانهال علي بعد التحية الحارة بخطاب حماسي متفائل قال فيه إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ان منفاك من تونس ليس مجرد حادث سياسي في نظافة محلي ضيق بل هو قدر من الله ...الخ.

ولا غرابة في ذلك فإن الأستاذ قبل أن ينفى إلى الجزائر كان من مؤسسي الحزب الدستوري التونسي القديم مع الشيخ الثعالبي رحمه الله وكان أمينا عاما لهذا الحزب كما كان رئيس تحرير لجريدتين تونسيتين، الفجر، والزهرة وقبل ذلك كان شارك بمقالات في جريدة الفاروق التي صدرت في الجزائر قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

إذا لما نوفي إلى الجزائر كان له رصيد فكري وسياسي وتجربة كبيرة في هذا الميدان فهو لم يبدأ من الصفر في الجزائر بل بنى على ما عنده من قبل مما جعل أعلام الحركة الإصلاحية يرحبون به من الشيخ مبارك الميلي إلى الشيخ ابن باديس نفسه إذ رأوا فيه عنصرا ناضجا فكريا وسياسيا وعقليا وذا ثقافة واسعة وقلم مطواع لا محالة سيستفيدون منه ويفيدهم في معركتهم العلمية والثقافية والإصلاحية، والشيخ مبارك الميلي هو الذي قدمه لابن باديس لأنه على معرفة به عندما كان يدرس في تونس، ويصف شيخنا ابن باديس بأسلوبه الجميل الرقيق اللطيف فيقول فإذا بطلعة مهابة مشرقة أطلت علينا فقام لها الجميع احتراما وتقديرا؛ ذلك هو الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس

الذي أخذ نجمه يتألق في سماء الكفاح وكأن عبد الحميد بن باديس كان الحادي عشر من ذلك الرعيل الأول الذي بعثه عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي لهذا المغرب العربي يبين للناس دينهم ويمتن أخلاقهم ويمهد لهم سبل الرشاد.

ثم بعد أن استقر له المقام وطاب له العيش سطر لنفسه برنامجا محددا ومدروسا.

1. الاستمرار في العمل الصحفي لأنه في الحقيقة هو صحفي أكثر من شيء آخر.

2. التأليف من حيث الصحافة في صحافة ابن باديس وقد أسند له تحرير البابين الأساسيين الثابتين في الشهاب "الشهر السياسي"، و"الشمال الإفريقي". فيقول كنت في الأول معلقا وفي الثاني موجها، ثم في جريدة البصائر بعد ذلك حيث كان محررا رئيسا ثم رئيسا للتحرير إلى أن توقفت الجريدة بعد اندلاع الثورة في سنة 1956 بالضبط وقد كان قلمه سيالا ومتميزا وعنيفا في كثير من الأحيان ويكتب في كل القضايا الوطنية والإسلامية وربما كان من أشهر مقالاته في البصائر هو المقال الأسبوعي تحت عنوان منبر السياسية العالميةً بإمضاء أبو محمد أو (أتم) وقد كان هذا المقال النافذة الوطنية الوحيدة التي يطل عليها المواطن الجزائري آنذاك على ما يجري في العالم وقد أخبرني شيخنا عبد الرحمان شيبان أن نصف الذين يشترون البصائر يشترونه للاطلاع على هذا المقال. ولم يكن نشاطه الصحافي مقتصرا على الجزائر فحسب بل كتب عن تونس عدة مقالات في الشهاب وكتب عن المغرب وعن فلسطين منذ 1930 وانقل لكم قوله في فلسطين سنة 1938 أنه إن قدر الله وضاعت فلسطين فإنها والله لن تذهب ضحية الصهيونية بل هي تذهب ضحية المسلمين الجامدين وضحية ملوك المسلمين المتغافلين فيا عامة

المسلمين ويا خاصتهم ويا ملوكهم وأمراءهم وقاداتهم هذه فلسطين الشهيدة ضائعة متلاشية فماذا أنتم فاعلون وكتب عن كل الدول العربية والدول الإسلامية وكتب حتى عن الهند.

وقد كان عمله الصحفي هذا المكثف والغزير هو الذي دفعه كذلك إلى التأليف وفي مختلف الميادين العلمية، وللحق وللتاريخ نقول إن لم يضاهبه أحد من الشيوخ الذين زاملهم وعاصرهم وكافح معهم في إطار الحركة الإصلاحية في البداية ثم في جمعية العلماء من بعد؛ وبعض هذه الكتب بدأها في تونس قبل أن ينفى إلى الجزائر لكن أغلبها ألفها هنا في الجزائر.

وأذكر في هذه الكتب دون مراعاة تاريخ تأليفها فأبدأ أولا بكتاب "جغرافية القطر الجزائري 1948" ولماذا بدأت بهذا الكتاب لأنه حسب علمي هو أول كتاب في جغرافية وطننا ألفه جزائري وكان هذا الكتاب مقررا علينا في معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة وأذكر أن الأستاذ توفيق المدني قد زارنا في هذا المعهد في سنة 1952 أو 1953 لا أذكر بالضبط وطاف بأقسام المعهد صحبة الشيخ خير الدين رحمه الله الذي كان آنذاك نائب مدير المعهد والمدير هو الشهيد الشيخ العربي التبسي رحمه الله وعندما دخلا علينا في القسم سألنا الشيخ خير الدين هل تعرفون هذا الشيخ قلنا لا فقال هذا هو توفيق المدني الذي تدرسون كتابه في الجغرافية. قد يقول أحدنا الآن أنّ هذا الكتاب بسيط وربما يتضمن بعض الأخطاء ولكن في تلك الفترة كان فتحا مبينا.

3. كتاب الجزائر الجغرافية التاريخ والمجتمع 1931 ويقول إنه ألف هذا الكتاب بناء على طلب من الشيخ ابن باديس نفسه ويقول في هذا الكتاب، "جاء الوقت الذي رأيت فيه من واجبي أن أقدم

للشعب الجزائري حالته الشخصية" غير مدلسة. غير مشوهة غير خاضعة للدعايات المغرضة أو للزيف الاستعماري.

وقد أثار هذا الكتاب عند صدوره ضجة كبيرة وتناولته الأقلام في الشرق والغرب وممن كتب عنه أمير البيان شكيب أرسلان والأستاذ الكبير محمد كرد علي وكرد علي هذا علاّمة بمعنى الكلمة وله علاقة عاطفية نحو الجزائر إذ أنه التلميذ الوفي للشيخ طاهر الجزائري الزواوي رائد النهضة العربية في الشام في أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين ومن الغرب المستشرق الفرنسي ماسنيون وشارل أندي جوليان... الخ وأنا استغرب كثيرا من عدم إقرار هذا الكتاب في جامعاتنا.

4. محمد عثمان باشا واعتبره تتمة للكتاب الآنف الذكر ويقول عن الداي محمد عثمان باشا كان واليا مثاليا ورجلا مسلما صميما ومتواضعا أعاد إلى الأذهان صورة عهد بن عبد العزيز. كان إلى زهده وورعه داهية في السياسة بطلا في الحروب قهر اسبانيا ودمرها مرتين وألحق بها من الخسائر البشرية والمادية ما أدهش العالم يومئذ ورفع مكان الجزائر إلى أرفع مقام.

5. حنبعل مسرحية ألفها سنة 1950 ومن الغريب أن نجد شيخنا يدلي بدلوه في هذا الفرع الأدبي الخاص جدا ولكنه فعلها، ويقول في هذا الشأن لقد كان للخيبات المتتالية في ميدان السياسة بالشمال الإفريقي وكان للنكبة العارمة التي دهت المسلمين والعرب في فلسطين وقع أليم على كل الطبقات الجزائرية المتحمسة فأصاب كثير منهم نوع من اليأس القاتل كنا نحاربه بأقلامنا وبخطبنا لكنا كنا نشعر بوجوده وبانتشاره فقلت لنفسي لماذا لا أجرب المسرح فرواية وطنية صادقة تلقى عليه أثناء حوارها ما يجب أن يقال للتغلب على الصعاب، فهكذا نشأت رواية حنبعل والمسلمون في جزيرة صقلية.

6. المسلمون في جزيرة صقلية.

7. حرب الثلاثمائة سنة 1422-1792 سنة 1968 سجل فيه صفحات أطول حرب عاشتها الجزائر وهي الحرب ضد إسبانيا بداية من سقوط غرناطة ونزول الجيوش الإسبانية في الشواطئ المغاربية وهي حرب صليبية شنتها إسبانيا الكاتوليكية على المغرب الإسلامي وقد طردت من بلادنا إلا وهران والمرسى الكبير وما حولهما فقد بقوا هناك إلى أن طردهم نهائيا في ملحمة بطولية نادرة خاضها شعبنا في الغرب الجزائري بقيادة المجاهد العظيم محمد بن عثمان الكبير باي الغرب وكان مقر إقامته في مدينة معسكر وكان ذلك 1206هـ الموافق لـ 1792 وقد دون هذه الملحمة البطولية النادرة أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي وقد عاش المؤلف أطوار هذه الحرب كلها من أولها إلى آخرها في كتابه القيم.

"الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" وقد صدر هذا الكتاب ضمن منشورات وزارة التعليم العالي الأصلي والشؤون الدينية في سنة 1973 بتحقيق المرحوم الشيخ المهدي بوعبدلي.

8. سيرته الذاتية التي سماها حياة كفاح صدر فيها 3 أجزاء أما الجزء الرابع فلم يصدر إذ أن الموت لم يمهله وسبقته يد المنون ونرجو أن تعمل عائلته على إصدار ما انتهى إليه من هذا الجزء قبل وفاته لأنه سيكون مهما بلا شك إذ سيذكر بالتفاصيل كما فعل في الأجزاء الأخرى كيف كانت حياته بعد استعادة السيادة الوطنية وما الذي جعله يتوارى عن الأعين منذ أن خرج من وزارة الأوقاف سنة 1964 وما موقفه من الأحداث التي وقعت وحدثت في الوطن منذ تلك الفترة.

الجزء الأول من هذه المذكرات لن نتعرض له لأنه لا يهمنا إذ يتمحور حول حياته في تونس.

الجزء الثاني من هذه المذكرات عنوانه في الجزائر 1925-1954 والجزء الثالث سماه مع ركب الثورة الجزائرية وسأقف عند كلا الجزأين وقفة طويلة شيئا ما لأمر على بعض الأحداث الهامة في حياة كفاحنا الطويل ضد الاستعمار الفرنسي والتي لا يعرفها إلا القليل من أبناء جيلنا أما جيل الاستقلال فأكاد أجزم أنه لم يسمع عنها شيئا لأنه ببساطة لن يجدها في كتبه المدرسية وهي أحداث ذات أهمية بالغة رسمت سير الكفاح الوطني في مختلف المراحل

وقبل أن استرسل أود أن أشير إلى أن تآليف أستاذنا في غالبيتها كتب تاريخية، تاريخ الجزائر والمنطقة. إلاّ أنه ليس مؤرخا بالمعنى الصحيح أي أنه ليس مؤرخا محترفا تضبطه قواعد متفق عليها مثل الدقة في سرد الأحداث والاعتماد على المراجع وفحص ما يوجد في هذه المراجع وغربلتها والرجوع بعد الفينة والفينة لما كتب إذ قد تظهر مراجع أخرى أو قد تتحصل على معلومات جديدة أو ربما تراجع ما قلته لتصحيحه...الخ فهو صحفي قبل كل شيء ويتناول التاريخ برؤية الصحفي وبلغة الصحفي، وقد حدثني أحد الأساتذة أنه بعد أن أخرج الطبعة الثانية من كتابه الجزائر لاحظ أن هذه الطبعة لا تزيد ولا تنقص عن الأولى ولو بحرف واحد فسأله لماذا لم تراجع الكتاب وتنقحه بالزيادة أو النقصان كما يفعل كافة المؤرخين فأجاب بأنه لا يعود أبدا بالقراءة أو التصحيح ولا يراجع أبدا ما سبق أن نشره وهذا ليس شأن المؤرخين المحترفين إن صح هذا التعبير.

وقد أثار كتابه حياة كفاح منذ أن صدر في سنة 1977 زوبعة بل عاصفة في القسم الخاص بتكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولم تهدأ هذه العاصفة إلا بعد أن التحق أغلب أبطالها بالرفيق الأعلى وقد بلغت هذه العاصفة أقصى درجات الغفوان في الندوة

التي نظمها المركز الثقافي الإسلامي في 16 أبريل 1978 تحت إشراف الأخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير مستشار لدى رئاسة الجمهورية مكلف بالشؤون الدينية وشارك في هذه الندوة مجموعة من الشيوخ، المؤلف نفسه والشيخ أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى وعضو جمعية العلماء المسلمين وكذلك الشيخ العباس ابن الشيخ الحسين الرئيس السابق للمجلس الإسلامي الأعلى عضو المجلس الإداري لجمعية العلماء صحبة شيخنا أحمد توفيق المدني وزميله في الرحلة إلى الشرق العربي كما سيأتي بأمر من جبهة التحرير وشيخنا عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء حاليا أطال الله في عمره ومحمد الطاهر فضلاء رحمه الله وآخرون وقد دام النقاش إلى ما بعد منتصف الليل وكان جادا وتجاوز في بعض الأحيان القواعد المرعية في مثل هذه المناظرات بل واستعملت كلمات جارحة من بعض الحاضرين.

وأول ما استنتجته أنا شخصيا ولاحظته أن هناك نوعا من الفتور في العلاقات بين شيخنا وبقية مشايخ الحركة الإصلاحية إلا ابن باديس ومبارك الميلي والشيخ خير الدين وربما يكون السبب في ذلك أن شيخنا تربى وترعرع في تونس وبدأ حركته النضالية هناك في الحزب الدستوري التونسي وكانتْ له ثوابته كما كانت له اختياراته وميوله وتوجهاته الفكرية مرتبطة بالحركة النضالية والسياسية والعقائدية التي تحيط بالمجتمع التونسي وقد تختلف كثيرا أو قليلا لما هو موجود في الجزائر فهو إذا بعيد عما يعتمل في المجتمع الجزائري وبعيد عن الخطوات النضالية التي قطعت في الجزائر وبعيد عن المحاولات والخيارات والترتيبات التي قام بها الجزائريون منذ الأمير خالد لخلق كيان إصلاحي علمي قوامه العروبة والإسلام وهدفه إحياء الأمة الجزائرية وبعثها والتصدي لمحاولات الاستدعاء من المسخ والتشويه فلما وصل إلى قسنطينة في 1926 واستقبل من المشائخ ذلك الاستقبال البهيج

ورحب به ترحابا كبيرا وخاصة تلك الكلمات التي سجلها والتي جاءت على لسان الشيخ مبارك الميلي الذي قال له من جملة ما قال إن منفاك من تونس ليس مجرد حادث سياسي في نطاق محلي ضيق وإنما هو قدر من الله لكي تبث أفكارك في وسط هذا الشعب الجزائري المناضل القديم العنيد أفكارك وآراؤك ولكي تنفخ فيه من روحك....الخ، هذه الكلمات ربما أوحت لشيخنا أشياء جعلته يحس في نفسه بأنه عليه أن يبادر إلى فعل شيء وقد أوضح هو ذلك فقال آليت على نفسي أن أكون حركة إصلاحية، ويقول إن الشيخ بن سماية طلب منه ذلك وإنه ألّف كتابا في تاريخ الجزائر....الخ.

فالجزائر كما توحي كلماته هذه كانت خرابا يبابا كما يقول المثل العربي وهذا ما فهمه منه الشيوخ وقد نفى هو هذه التهمة نفيا قاطعا، إذ الواقع والحقائق التاريخية تثبت أن الحركة الإصلاحية كانت قائمة وأن مشروع إنشاء جمعية العلماء بهذا الاسم وبأسماء أخرى قد كانت الشغل الشاغل لابن باديس والإبراهيمي وأصحابهما مند سنوات مند أن اقتحم ميدان الصحافة بجريدة المنقذ أولا ثم الشهاب ثانيا أي منذ 1224 وقد وجه ابن باديس في الشهاب العدد الصادر في ماي 1931 نداء بعنوان هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء فينال جائزة مالية مع تخليد الذكر ثم اتبعه بمقال آخر في الشهاب بعنوان جمعية العلماء كيف يجب أن تكون وماذا ننتظر منها، إذا الفكرة قديمة والعمل على إبراز ذلك إلى الوجود جار على قدم وساق كما يقال ولكن هناك ظروفا غير مواتية كما قال الإبراهيمي رحمه الله في إحدى كتاباته.

غير أن شيخنا المدني أشتد به الحماس أكثر من اللازم ولم يقدر الظروف الموضوعية التي كانت عليها الجزائر وربما أنه يملك أيضا تجربة في ميدان الجمعيات والأحزاب أكثر من شيوخنا فهو من مؤسسي

الحزب الدستوري التونسي كما أشرت آنفا ما دفعه إلى الإسراع بتكوين لجنة تحضيرية لتحضير مؤتمر عام دعا إليه مائة ونيف من العلماء من مختلف أنحاء الوطن ومن مختلف الاتجاهات والتوجهات أيضا لإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكانت هذه الهيئة التأسيسية تكونت من أربعة أشخاص هي التي أوجدت قائمة الذين سيدعون إلى هذا المؤتمر وهي التي وجهت الدعوات وحددت التاريخ ومكان انعقاد هذا المؤتمر وقد أكد هذا الشيخ حمزة بوكوشة رحمه الله عضو المجلس الإداري لجمعية العلماء في جريدة البصائر الصادرة في 5 ماي 1965 وذلك ما أكده من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي في مجلة الشهاب المجلد السابع ص 5 "يقول على الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذي الحجة الموافق للخامس من مايو 1931 اجتمع بنادي الترقي 72 من علماء القطر الجزائري وطلبة العلم فيه استجابة لدعوة خاصة من لجنة تأسيسية من جماعة من فقهاء العاصمة... وغرض هذه الدعوة هو تحقيق فكرة طالما فكر فيها علماء القطر وهي تأسيس جمعية العلماء المسلمين" وهذه الكلمة من الشيخ البشير الإبراهيمي تبين بوضوح أن اللجنة التأسيسية هذه حقيقة تاريخية والتفكير في موضوع الاجتماع أي إنشاء جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين أيضا حقيقة تاريخية قبل أن يحل الشيخ توفيق المدني بالجزائر.

ولكن الذي أثار حفيظة الشيوخ أنهم أحسوا بأن شيخنا حاول أو يحاول أن يزحزح ابن باديس من مكانه أو يقلل من جهوده في هذه القضية بالذات وخاصة أنه قد أفصح من قبل أنه طلب منه أن يؤسس حركة إصلاحية، وكذلك حاول أن يسند لنفسه دورا أكثر مما هو في الواقع بالفعل وهذا ما أفصح عنه الشيخ العباس بن الشيخ الحسني رحمه الله رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الأسبق ورفيق الشيخ

توفيق المدني في المجلس الإداري لجمعية العلماء ورفيقه في الكفاح أثناء الثورة التحريرية في الشرق العربي يقول الشيخ العباس إن الذي يقرأ كتاب أخينا الكريم الشيخ توفيق المدني يجده عبارة عن أنات من أولها إلى آخرها فأنا الذي فعلت وأنا الذي تركت وأنا الذي وأنا الذي..... الخ وقد رد الأستاذ عن دعوى الأنات والتاءات فقال إنها مذكرات والمذكرات هي أن أكتب ما رأيت وما سمعت وما علمت... ! وهذه من آفات المذكرات والسير الذاتية فصاحبها يحاول دائما أن يحيط نفسه بهالة من العظمة والتفوق والعبقرية والاتصاف بصفات قد لا تكون فيه أصلا أوهي أقل مما يدعيه صاحبها ثم أيضا من آفات هذه السير الذاتية أنها تعتمد على الذاكرة أكثر مما تعتمد على الوثائق مما يوقع صاحبها في كثير من التناقضات.

إذاً، فالشيخ توفيق المدني ليس هو صاحب الفكرة، فكرة انشاء جمعية العلماء و لم يتطاول على ابن باديس فقد مجده تمجيدا مبالغ فيه في بعض الأحيان؛ فابن باديس لا يمكن أن يزحزحه أحد من مكانه مهما كان هذا الأحد والذي أستغربه أنا شخصيا في موضوع إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو إهمال كلا الفريقين دور العلامة الشيخ المولود الحافظي الأزهري في تأسيس الجمعية مع العلم بأن الشيخ الحافظي من الأوائل الذين دعوا إلى تأسيس الجمعية في مقال نشره في العدد التاسع ص 5 من الشهاب تعقيبا على نداء صدر في العدد 3 من المجلة نفسها للشيخ ابن باديس يدعو فيه العلماء المصلحين إلى تأسيس حزب ديني محض غايته تطهير الدين مما ألحقه به الجاهلون، فكتب الحافظي مقالا يجدد فيه الدعوة إلى تأسيس مثل هذا الحزب ومما جاء فيه نود أن يوفق رجالنا العلماء إلى هذا منذ زمن بعيد إذ حالتنا الدينية أصبحت في آخر نقطة في الانحطاط وداخلتنا البدع من حيث لا نشعر منذ زمن ليس بالقليل فطال عليها العهد حتى

أصبحت محل اعتقاداتها من الدين، و لم يكتف الحافظ بذلك بل قدم برنامج العمل لهذا الحزب في 8 نقط.

1- إنشاء مدارس لتعليم النشء بالطريقة الحديثة مع إدخال اللغة الفرنسية.

2- جمع الزكاة لتمويل مشروع بناء المدارس.

3- تأسيس فروع للحزب من المدن والقرى والمداشر.

4- طبع الكتب ونشر المجلات.

5- توسيع دائرة الوعظ والإرشاد (6) إبعاد الحزب عن السياسة لأن ذلك من شأنه أن يعود على الحزب بالضرر والإبطال، إذا هذا هو موقف الحافظي ولكنه أهمل كأن لم يكن وذلك لأسباب نعلمها حدثت فيما بعد.

هذه إذاً هي القضية الشائكة أو العالقة التي أثارتها مذكرات أستاذنا بعد صدورها في 1977 ودفعت به إلى الواجهة بعد أن تنوسي وأقصي من الحياة العامة عن عمد وسبق إصرار.

بعد هذا أعود إلى هذا الجزء من المذكرات للمرور على بعد الأحداث والحقائق التي كانت محطات فاصلة ونقط ضوئية جليلة من مسيرة كفاحنا الوطني ضد المستدمر الفرنسي والتي يجهلها كثير من جيلنا نحن أما جيل الاستقلال فأغلبه لم يسمع بها أبدا أو سمع بها تروى له كأنها حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة والذنب ليس ذنبه لأنه لا يجدها في الكتب المقررة عليه في المدارس وفي الجامعات وهذه هي الطامة الكبرى

1- حركة نجم شمال إفريقيا: منا من سمع بها ومنا من لم يسمع، منا من اطلع على برنامج هذه الحركة وأهدافها والتي تعتبر أول

حركة سياسية مغاربية ولدت من رحم العمالة المهاجرة المغاربية في فرنسا والتي دعت جهرا وبصوت عالٍ بل بأعلى صوتها باستقلال الشمال الإفريقي ويقول عنها أستاذنا هذه حركة مطهرة فاضلة مخلصة أوحى بها الضمير الحر لجماعة من رجال المغرب العربي الفضلاء كان من بينهم الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر بعد أن اضطر لنخروج من الجزائر وكان منهم عبد القادر بن حاج علي وعلي الحمامي ومصّالي الحاج الذي أنشأ فيما بعد حزب الشعب الجزائري ثم يقول وكانت الصيحة القوية المدوية الرهيبة التي لم يكن الاستعمار ينتظرها وهي صيحة الاستقلال الوطني لأقطار المغرب العربي تم يقول بعد أن رأت هذه الحركة أن ساعدها قد اشتد وأن عملها قد امتد عقدت اجتماعا خلال شهر مارس 1926 أعلنت فيه تأسيس حركة نجم شمال إفريقيا حركة سياسية منظمة تعمل على استقلال الوطني لشمال إفريقيا والتخلص من ظلم الاستعمار الفرنسي إلى الأبد وقد حلت هذه الحركة في سنة 1932 من طرف رئيس حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا اليهودي ليون بلوم بعد أن اصطدمت مع الأحزاب اليسارية الفرنسية التي كانت لها الأغلبية في الجمعية الوطنية الفرنسية

حلت حركة نجم شمال إفريقيا كحركة سياسية لشمال إفريقية ولكن ظهرت من جديد وهذه المرة كحركة جزائرية صرفة باسم حزب الشعب الجزائري في شهر مارس بزعامة مصالي الحاج كما أشرت آنفا.

2- المؤتمر الإسلامي في سنة 1936: انتصر اليساريون في الانتخابات الفرنسية وتشكلت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم وهو يهودي فرنسي، فاستبشر النواب أي النواب الجزائريون في البرلمان وفي البلديات والعمالات خيرا وكذلك من يوافقهم في التفكير

ومن كانت له نفس التوجهات السياسية وحسبوا أنهم سينالون من هذه الحكومة ما لم يتيسر لهم مع الحكومات السالفة فتنادوا إلى عقد اجتماع عام لأول مرة في تاريخ الجزائر كما يقول شيخنا يشمل كل النواب والشيوعيون والعلماء باسمهم الشخصي وقد تقرر في هذا الاجتماع المطالبة بالحقوق الفرنسية للمسلمين مع بقاء تعاملهم في الأحوال الشخصية بالشريعة الإسلامية واستعمال اللغة العربية لغة الدراسة في المدارس الأهلية واستقلال الدين عن الحكومة وقد وقع هذا الاجتماع يوم 7 جوان، ويقول شيخنا إنه لم يوافق على هذه المطالب فقال قلت لهم طالبوا بالقومية الجزائرية وبحكم الأغلبية مع بقائكم مرتبطين مع فرنسا إلى حين ونادوا بوجوب تكوين حكومة جزائرية وانتخاب برلمان جزائري فقال، قال لي فرحات عباس هذا خيال وهذا معناه إعلان الحرب على فرنسا وقال لي ابن باديس بطم طميمه لم تحن الساعة بعد لهذا ويكفينا الآن أن نحرز عن استقلال الدين وحرية العربية وأن لا نضيع صبغتنا الدينية الإسلامية. ثم قال وقف ضدي كل إخواني وأنصاري وقالوا لي جميعا لا تكن عامل إفساد ولنترك هذه المحاولة تتم فإذا نجحت استثمرناها إلى أقصى حد وإذا خفقت بنينا على إخفاقها سياسة أخرى.

وكانت مطالب هذا المؤتمر كما أوردها شيخنا :

1- إلغاء كل القوانين والقرارات الاستثنائية الخاصة بالجزائر.

2- تلغى الولاية العامة في الجزائر وأن تكون الجزائر تابعة لفرنسا مباشرة.

3- أن يكون للمسلمين الجزائريين نواب يمثلونهم بالبرلمان الفرنسي.

4- أن يكون الجزائريون فرنسيين عامة مع بقائهم متمتعين بالحقوق الشخصية الإسلامية.

5- الاستقلال التام للدين الإسلامي كاستقلال الأديان الأخرى والإنفاق عليه من أموال الأوقاف المسترجعة والتي اغتصبتها فرنسا منذ العهد الأول للاحتلال.

6- اعتبار اللغة العربية لغة الدراسة بالمدارس الجزائرية.

هذه هي مطالب وفد المؤتمر الإسلامي كما لخصها شيخنا ولكن الوفد الذي يتكون من شخصيات بارزة برئاسة الإمام ابن باديس نفسه أخفق إخفاقا شنيعا و لم يتحصل على شيء وكانت بينه وبين الحكومة الفرنسية مناوشات عنيفة فقال أحد الوزراء لابن باديس تذكر أن فرنسا معها المدافع فأجابه ابن باديس بتؤدة ووقار وتذكر أنت يا سيد الوزير أن الجزائر معها الله وكأن رد ابن باديس وحي من الله إذ لم يمض إلا عقدان من الزمن حتى نصر الله الجزائر على الاستعمار الفرنسي وطغيانه وجبروته.

3- الجزائر ليست فرنسا : يقول شيخنا إن فرحات عباس في غمرة الحماس لمذهبه والدعوة لمنهاجه كتب مقالا شهيرا عنوانه فرنسا هي أنا وأورد فقرة من هذا المقال كالآتي "إنني لست مستعدا للموت في سبيل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن لا وجود له إنني لم أكتشفه ولقد سألت عن التاريخ وسألت عنه الأحياء والأموات وزرت المقابر من أجل اكتشافه فلم أجد من كلمني عنه إطلاقا إننا لا يجب أن نبني فوق الرمال وإني قد أبعدت بصفة تامة ونهائية كل خيال لكي نربط المصير بصفة مطلقة مع الوجود الفرنسي لهذا البلد، ويقول شيخنا إنه قال لابن باديس أتترك مثل هذا الكلام يمر دون أن ترد فقال له ابن باديس بلى سنرد عليه ورد عليه ابن باديس في الشهاب تحت عنوان "كلمة صريحة" ويقول شيخنا إنه هو الذي حرر هذا المقال لكن كل الدارسين والمؤرخين يتفقون على أنه لابن باديس

وهو مقال طويل أكتفي منه بهذه الفقر المفخمة والبليغة والصادقة أننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن ومن قبيح شأن كل أمة في الدنيا. ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. ولكن فرحات عباس تراجع عن موقفه وتاب من ذنبه كما نعلم جميعا وسماه شيخنا في كتابه بـــ"تطور رجل صالح".

- جبهة الدفاع عن الحرية يقول شيخنا إني لأعجب كل العجب كيف اتفقت كلمة المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة على نسيان هذه الجبهة وكأنها حادث بسيط تافه، هذا غلط لقد كانت هذه الجبهة حدثا عظيما وكانت الومضة الأولى التي انبثق بعدها نور جبهة التحرير الوطني. وهذه الجبهة تأسست في شهر جوان 1951 بعد جهد كبير ومخاض عسير ضمت الأحزاب السياسية، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الحزب الشيوعي، وجمعية العلماء، وكانت هذه التركيبة تمثل الشعب الجزائري كافة في مختلف اتجاهاته وتوجهاته فهو هيكل يمثل اتحاد الأمة الجزائرية وتهدف إلى إحداث كتلة وطنية قومية تناضل من أجل الوصول بالجزائر إلى الاستقلال.

وكان يمثل فيها جمعية العلماء الشيوخ العربي تبسي ومحمد خير الدين وأحمد توفيق المدني ويمثل حركة الانتصار أحمد مزغنة ومولاي مرباح وعبد الرحمن كيبوان وحزب البيان الدكتور أحمد فرنسي

وأحمد بومنجل وبشير بويجرى وقدور ساطور أما الحزب الشيوعي فمثله يونس كوش ومسيو كاباليرو وكانت أهم المبادئ التي تناضل من أجلها هذه الجبهة هي:

1- إطلاق سراح مصالي الحاج.

2- إلغاء الانتخابات وإجراء انتخابات جديدة لا تتدخل فيها الحكومة.

3- الكف عن أعمال الزجر.

4- حرية الصحافة والمؤسسات.

5- تحرير الدين الإسلامي.

وهناك نقط أخرى هامة لا يتسع المجال لذكرها وأحيل من أراد الإطلاع عليها إلى مذكرات الشيخ حياة كفاح ...

وسأنتقل الآن إلى المرحلة الأهم في الكفاح السياسي والجهادي لشيخنا مرحلة الثورة المباركة. وقبل أن أشرع في ذلك أود أن أشير بإيجاز إلى الحفل الذي أقامه بعض أعضاء الجمعية جمعية المسلمين الجزائربن بمناسبة مرور ثلاثين عاما على إقامة شيخنا بالجزائر بعد أن نفته فرنسا وقد تحدث هو عن هذا الحفل وكان من أجمل وأبدع الحفلات كما يقول هو يسوده التفاؤل بالنصر القريب للجزائر في جهادها ضد المستعمر. وألقيت في هذا الحفل خطب وقصائد شعرية أورد فيها شيخنا حسب الترتيب:

1. قصيدة للشهيد عبد الكريم العقون في 46 بيتا بدأها يقوله:

كفاحك أحمد يطوي السنيـــن فسل عنه ياليـــث هذا العريـــن

فقد ذدت عنه العدد ثابـــتـــا أمام الأعاصيـــر والظالـــمينـــا

وختمـــها بقولـــه:

أتوفيـــق سر في طريق الـــعـــلا فحولك أسد الحمى الطامحـــون

وعش للعروبـــة رائـــدهـــا ودم للجزائر حصنـــا حصـــين

2. للشيخ أحمد سحنون رحمه الله في 15 بيتا ومما جاء فيها:

أنـــت توفـــيـــقُ أُمـــــةٌ شغفـــت بالـــمـــفاخـــر

لك إلهـــام فـــيـــلـــســـو ف وإحـــســـاس شاعـــر

ويـــراع كـــأنـــمـــا نفثـــه نـــفـــث ســـاحـــر

أنـــت والله خـــالـــد رغـــم انـــف الـــمكـــابـــر

3. والقصيدة الثالثة لشاعر الثورة مفدي زكريا في 42 بدأها يقول:

شاكر الفضل ليس يعدم شـــكرا خلـِدوها إذن لأحمد ذكـــرى

واكتبوها وليقـــرأ الجيل منهـــا في كتاب الجزائر اليوم سطـــرا

واذكروا اليوم وهو عيد الضحايا والضحايا رمزا لضحايا الأبـــرا

والثلاثين قد قضاها نـــضـــالا وجلادا تخلها الـــيـــوم شهـــرا

والتقاويم والبصائـــر والـــنـــا دى وعثمـــان والكتاب الأغرا

ثم قصيدة من الشعر الحر للدكتور سعد الله ذات تفعيلتين في الغالب أقرأ عليكم فقـــرة منها:

إنـــهـــا قـــصـــة حـــــر كافح الظلـــم فأبلـــــى

كافـــح الجور الخطـــيـــب وافتـــدى الحق السليـــب

وهدى الشعب القليل وارتضى الأبعاد عن بيع الضمير
ليضيء الحالكات في المصير المغربي
وتزيح العقبات من دروب الزاحفين
من شباب العربي

وسأنتقل الآن إلى المرحلة الأهم في الكفاح السياسي والجهادي في سبيل الجزائر وأعني بذلك مرحلة الثورة المباركة. عندما اندلعت الثورة في أول نوفمبر 1954 كان شيخنا يتولى منصبين في جمعية العلماء أولهما هو أمينها العام وثاني المنصبين رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويسجل شيخنا في مذكراته بأن أول عمل قام به بعد اندلاع الثورة هو إعلام الشيخ البشير الإبراهيمي الموجود في القاهرة ومما جاء في رسالة الإعلام هذه "وهكذا أيها الشيخ الجليل استجابت الأمة لدعوة الجهاد التي نشرناها مدى عشرين عاما وأعلنتها ثورة على الغاصبين وأسندت قيادتها لجبهة تحرير وطني لا لحزب ولا لفرد".... أما وقد انضممنا نحن للثورة فنرجوك أستاذي الجليل أن تفجر من ينبوع فكرك الصافي موردا عذبا يشفي غلة الأمة الصادئة وأن تنشر باسمك وبصفتك رئيسا لجمعية العلماء منشورا عاما يبارك الثورة ويمجدها ويدعو الأمة للمشاركة فيها روحا وبدنا ومالا.....الخ وبالفعل فلم تمض إلا أيام حتى صدر النداء الثاني للشعب الجزائري من جمعية العلماء بعد النداء الأول الذي وقعه الداعية الشيخ الفضيل الورثلاني في 3 نوفمبر وصدر هذا النداء الموجه إلى الشعب الجزائري وأمضاه كل من الشيخين البشير الإبراهيمي والفضيل الورثلاني يوم 15 نوفمبر وهو بيان طويل يقع في 3 صفحات أنقل لكم الفقرة الأخيرة منه "إننا كلما ذكرنا ما فعلته فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر وذكرنا

فضائحها في معاملة المسلمين لا شيء إلا أنهم مسلمون كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا إنما هو الكفاح المسلح الذي يسقط علينا الواجب ويدفع عنا وعن ديننا العار فسيروا على بركة الله وبعونه وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح فهو السبيل الوحيد إلى إحدى الحسنين إما الموت وراءه الجنة وإما حياة وراءها العزة والكرامة".

قبل أن أسترسل في الخطوات التالية لشيخنا نحو الثورة أشير إلى أن الشيخ قد ذكر في مذكراته أنه قبيل اندلاع الثورة وبمناسبة زيارته لمدينة باتنة لتدشين مدرستها، اتصل بأحد قادة الثورة وأبلغه بالمعلومات عن الحدث العظيم وسلم له منشورا للثورة كما سماه أي بيان نوفمبر وعلم ميقاتها المعلوم كما أكد أنه منذ إعلان الثورة إلى غاية رحيله من الجزائر إلى الشرق كان مكتبه في الجزائر هو مركز توزيع بريد الجبهة ووسيلة اتصال بين مركز القيادة في العاصمة وبقية الجهات الأخرى وقد ذكر عدة أسماء ساعدته في هذه المهمة منهم الخياط قدور ساطور الذي يأتي من الجبهة بما يجب أن يبلغه والشيوخ حمزة بوكوشة وأحمد سحنون ومصباح حويذق وجيلالي الفارسي للتبليغ.

ثم سخر جريدة البصائر التي كان رئيس تحريرها لخدمة الثورة والدعوة لها ونشر أخبارها وذكر أخبار المعارك التي يخوضها جيش التحرير الوطني ضد المستعمر بالتفصيل وسماها يوميات الثورة ففي أول عدد من البصائر بعد أول نوفمبر كتب الافتتاحية تحت عنوان "الليلة الليلاء" وفي العدد الثاني نشرت البصائر مقالا مستفيضا وضمت الأحداث التي وقعت بالأعمال العسكرية المنظمة وتكلمت عن أولئك

الذين رفعوا لواء الثورة واستمرت البصائر على هذا المنوال وفي العدد 297 الصادر في 17 ديسمبر مقالا تحت عنوان "الجزائر فوق كف عفريت" ومما جاء في هذا المقال "إن هذه الحالة الحالكة المضطربة لا يمكن أن تدوم طويلا فيتعين على المسؤولين إيجاد حل سريع لها ووضع حد لأعمال القمع والزجر والتنكيل بإلغاء النظام الاستعماري وإحقاق الحق والاستجابة لرغبات الشعب المشروعة.

ثم استمر أستاذنا هكذا في افتتاحيات البصائر التي كانت أعين السلطات الاستعمارية مفتحة عنها لا تغفل عنها أبدا وكثيرا ما صادرتها.

وفي العدد 330 من البصائر الصادر في أواخر أوت 1955 كتب مقالا باسم جمعية العلماء تحت عنوان "نحن لا نطلب صدقة بل نريد حقاً أنقل إليكم الفقرة الأخيرة منه يقول" نحن نريد دولة وحكومة وديمقراطية صحيحة ودستورا شعبيا يحقق سيادة الأمة، كل الأمة، ولا نريد لقمة خبز تلقى لإسكات الجياع، ولا حفنة من الرماد كذر في عيون الناظرين، نريد نظاما كاملا لا إصلاحات منقوصة نريد حقا ولا نقبل صدقة، نريد أن يسوى بيننا وبين سائر الأمم لأننا لسنا دون أية أمة من الأمم، إلى أن يقول فإن لم تستمعوا اليوم فتسمعون غدا والأيام بيننا.

ويقول شيخنا إنه يتحرى في افتتاحيات البصائر ثلاثة أمور:

1- فضح أساليب الاستعمار.

2- تجنب ما يمكن أن تعتبره السلطات ذريعة للإيقاع بالبصائر وضرب جمعية العلماء.

3- عرض المقالات قبل نشرها على المكلف من طرف الثورة بالإشراف على العمل.

لقد كان شيخنا صحفيا محترفا إن صح هذا التعبير يمتلك ناصية اللغة واللغة عنده عجينة في يديه يقولها كيفما شاء ذخيرة لا تحصى من مفردات اللغة يختار منها ما يناسب المقال والمقام أسلوب لين مطواع لين مثل الحرير ليس بالمطلب المغل ولا بالمقتضب المظل الآن ويأخذ بالألباب جمل يسحر تقرؤها متناسقة لا حشو منها ولا إسفاف تجعلك وأنت لا تستطيع التوقف بل ستدفع بكليتك إلى أن تأتي على النهاية فأنت ستكون مسحورا ومأخوذا ولن تملك إلا المضي إلى آخر كلمات في آخر سطر، وإن من البيان لسحرا. وأنا شخصيا لا أرى من كتابنا من هو أقدر منه وأروع وأبهى إلا الإبراهيمي العظيم كما يسميه شيخنا.

وفي مارس 1956 تلقى أمرا من الجبهة بالاستعداد للالتحاق بالإخوة في القاهرة وكان الذي بلغه بذلك الأمر كما يذكر في مذكراته هو الشهيد عبان رمضان.

وكان سفره على باريس أشبه بمغامرة. فليس من السهل أن تغفل عنه السلطات فاتفق مع عبان رمضان والشيخ خير الدين على أن يكون سفره إلى باريس في الظاهر لعلاج زوجته التي يستدعي مرضها إجراء عملية جراحية لها في باريس اعتمادا على تقارير وأفلام مزورة أعدها له صهره الدكتور مريوة ونجحت الخطة وفي باريس التقى بالشيخ العباس بن الشيخ الحسين، ومن باريس إلى مرسيليا ومن مرسيليا إلى جنيف، وفي جنيف اجتمع بفرحات عباس ود. أحمد فرنسيس والتحق الجميع بالقاهرة حيث الوفد الخارجي المتكون من الرئيس بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر ود. لمين دباغين وأحمد بوده وحسب ما ذكره أستاذنا في مذكراته قد شارك في كل المهام التي قام بها الوفد الخارجي سواء كان ذلك في مصر أو في السودان وفي لبنان والعراق وسوريا وفي بقية بلدان الشرق العربي والإسلامي وهو الذي كان يحرر البيانات التي يصدرها الوفد وبذلك هو الذي

كان يترأس الندوات الصحفية التي يعقدها الوفد وهو الخطيب الذي أسندت له هذه المهمة في الاجتماعات العامة ربما كان ذلك لأنه خطيب مصقاع وكاتب قدير نظرا لتجربته النضالية والسياسية والحزبية منذ القديم منذ أن كان في تونس، وقد صال وجال وطاف في كل أرجاء العالم العربي والإسلامي باسم جبهة التحرير الوطني، وقابل كل رؤساء وملوك العرب والمسلمين من عبد الناصر إلى عبد الكريم قاسم إلى الملك إدريس السنوسي ....الخ

والحقيقة إن هذا الجزء أي الجزء 3 من المذكرات يستحق من الباحثين ومن الدارسين وأساتذة التاريخ ومؤرخي ثورتنا الاهتمام الأكبر لأنه مليء بمعلومات عن مسيرة ثورتنا في الشرق العربي وعن النشاطات المختلفة التي قام بها ممثلو الجبهة هناك وعن مواقف دول المنطقة وحكوماتها من الثورة وكذلك مليء بكثير من الألغاز التي نسمع بها ولا نعرفها بالتدقيق وعن بعض الصراعات وحتى الخصومات بين قيادي الجبهة، لأن الذي يرويها أحد هؤلاء القياديين في الوفد الخارجي ثم في الحكومة المؤقتة من بعد فهو شاهد حي وسأتعرض لبعض الأحداث الهامة التي أوردها أستاذنا في مذكراته والتي لا يزال بعضها عند الكثيرين من الأسرار الغامضة المبهمة. أول هذه الأحداث هو اختطاف الزعماء الخمسة فيقول "يوم السبت الثالث عشر من أكتوبر 1956 أخذني أحمد بن بلة ومحمد خيضر إلى مكتب العقيد الفاضل فتحي الديب، وفتحي الديب هذا من مسؤولي المخابرات المصرية وهو المكلف من طرف الرئيس عبد الناصر بالاتصال مع وفد الثورة في القاهرة ولهذا فإن اسمه يتردد كثيرا في مذكرات الشيخ" وكانت كل الوجوه مبتهجة وقال حميميد وحميميد هو ابن بلة يا سي فتحي نحن مسافران غدا ولربما طال أمد سفرنا ما يقارب الشهر فهذا هو توفيق ممثلنا الوحيد هنا يمكن لكما أن تتعاملا معه كما تتعاملا معنا إلى رجوعنا فقال السيد فتحي مرحبا بالأخ توفيق

ثم قال أي فتحي يا سي أحمد أعيد عليكما بهذه المناسبة تحذير السيد الرئيس وأكرر إن المعلومات التي لدينا تؤكد وقوع مؤامرة ضدكما وضد بقية أعضاء الوفد وأكد عليّ السيد الرئيس بأن أحاول منعكما من المشاركة في هذا المؤتمر الذي أرادته فرنسا مكرا وخداعا فإن سافرتما ووقعتما فتذكرا كلام الرئيس؛ وقد أكد هذه المعلومات منذ شهور الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل الذي كان ملازما لعبد الناصر هذه المعلومات في قناة الجزيرة ونفى بعضهم عندنا هذا والذي استغربه أنا هو تهافت صحفنا حول هذا النبأ كأنه سر أذيع للمرة الأولى مع أن شيخنا ذكر هذا منذ ما يزيد عن 30 سنة وهذا إن دل عن شيء فإنما يدل على أننا لا نقرأ ما يكتب عندنا لانعدام الثقة بيننا بكل أسف، وقد سألت الأستاذ المجاهد عبد الحميد مهري عن هذه المؤامرة فأكد لي أنها مؤامرة موجودة فعلا أعدتها مجموعة من الوزراء الفرنسيين آنذاك وأعطوها اسما هو Code hors jeux, أي جعل كل قيادات الثورة خارج الملعب بلغة الرياضيين بأي طريقة كانت وأكد لي الأخ مهري أن الوزير الفرنسي Alain Savary استقال من الحكومة آنذاك بسبب ذلك، أما هل هناك أطراف أخرى غير فرنسية شاركت في المؤامرة فذلك ما لا أستطيع تأكيده.

وبعد هذه النكبة كما سماها شيخنا حاولت السلطات المصرية فرض شيخنا كزعيم للثورة، وأنه المسؤول الوحيد فكانت ترسل إليه مراسلي الصحف المصرية الكبرى كالأهرام والمصور لتجري معه استجوابات ونشر صوره وإحاطته بهالة كبيرة تجعل من ضعاف النفوس يقعون في الفخ، الذي نصب لهم من حيث يدرون أولا يدرون وقد سجل شيخنا كل ذلك في مذكراته وقال إنهم يشوهون التصريحات التي كنت أدلي بها لصحفهم وينشرون ما ينسجم

مع مرغوبهم، ويقول شيخنا إذا اشتكيت للأخ فتحي يجيبنا بأن ذلك من صالحنا وقد أكد الأخ مهري هذه الحقيقة، ومن أخطر ما سجله الشيخ أنه بعد العملية التي تمت ضد الزعماء الخمسة، استولت المخابرات المصرية منذ الساعة الأولى على كل ما يوجد في مكتب بن بلة من أوراق وحسابات ووثائق بأمر من فتحي الديب وهذا يدل على أن المخابرات المصرية كانت تراقب كل تحركات الوفد الخارجي ووضعتهم تحت مجهرها بل لا يأتون بحركة إلا وهم على علم بها، وكانت محاولة فرض الشيخ توفيق كزعيم للثورة يهدف بالدرجة الأولى إلى ابعاد من لم يحز على الرضا من جانبهم وخاصة منهم د.لمين دباغين الذي تعود له رئاسة الوفد تلقائيا. وقد اجتمع الوفد بكل أعضائه بعد فترة وجيزة وأزالوا سوء التفاهم وعين د. دباغين رئيسا للوفد ويقول الشيخ إن المصريين يرون أن الثورة هي بن بلة وخيضر فقط ولهذا لم يتقبلوا بالقبول الحسن إسناد رئاسة الوفد للدكتور دباغين ولم يرتاحوا لمقررات مؤتمر الصومام ولا للقيادة الجماعية للثورة ولا لقيام المجلس الوطني للثورة ولا للجنة التنسيق والتنفيذ، والمصريون يكرهون فرحات عباس وهو يبادلهم نفس الشعور ويقول الشيخ إنهم لا يعرفون الفرنسية وهو لا يعرف العربية، ويرونه مندسا في صفوف الثورة ويؤكد الشيخ أن المصريين لم يرحبوا بتشكيل الحكومة المؤقتة، وقد سألت عن ذلك الأخ مهري فأكد لي ذلك وقال إنه أشيع آنذاك أنه جرى اتصال سري بين دوغول وعبد الناصر، وأن دوغول أفهم عبد الناصر بأنه بصدد إعداد إجراءات لصالح الجزائر ولهذا طلب منه أن يكلم قيادة الثورة وأكد لي الأخ مهري أنهم لم يقبلوا أي كيان جزائري إلا على مضض حتى فريق جبهة التحرير الوطني لكرة القدم الذي لعب مع كل فرق الدول الشقيقة والصديقة

إلا الفريق المصري. وكانت النكبة الثانية التي أصابت الثورة كما يقول شيخنا هي حجز الباخرة أتوس التي كانت محملة بالأسلحة لإمداد جيش التحرير ويقول الشيخ اننا اشتغلنا مدة لا يستهان بها مع المصريين في شحن هذه السفينة وقد ذكر قائمة الأسلحة بالتفصيل، التي احتجزتها السلطات الفرنسية قرب سواحل وهران ويؤكد شيخنا أن المخابرات المصرية والعقيد فتحي الذيب هو المسؤول عما حدث لأنه هو الذي اختار قائد السفينة المدعو إبراهيم وهذا برأيهم كان عميلا للمخابرات الفرنسية يقول الشيخ وأكد ذلك فتحي الذيب وعند اقتراب السفينة إلى الشواطئ الجزائرية أخبر الفرنسيين ولا ننهي هذه الفترة دون أن أشير إلى أن الشيخ أورد في مذكراته النص الرسمي لمؤتمر الصومام ويقع في 33 صفحة من صفحة 230 إلى صفحة 263 من الجزء الثالث لمذكرات ومن أهم ما لفت انتباهي هو ذكر عدد المجاهدين في كل منطقة في أول نوفمبر مثلا كان عدد المجاهدين في المنطقة الثالثة في أول نوفمبر 450 مجاهدا وبلغ عددهم عند انعقاد مؤتمر الصومام 3100 وفي المنطقة الرابعة كان عددهم في أول نوفمبر 50 مجاهدا وعند انعقاد مؤتمر 1000 مجاهد ...الخ

ثم أهداف حرب التحرير وشروط وقف القتال، تم تعيين أعضاء مجلس الثورة البالغ عددهم 34 ترك 17 رسميون و17 مساعدون ثم الحكومة المؤقتة التي أمر البت فيها إلى لجنة التنسيق والتنفيذ، على كل لا أريد أن أطيل عليكم فالكثيرون منكم أطلع على هذا التقرير ولو مختصرا وأحيل من أراد لاستزادة في ذلك إلى مذكرات الشيخ وقد ذكرت بعض الأحداث التي جرت فيها في هذه الفترة الممتدة من اندلاع الثورة إلى سنة 1958 حيث تكونت الحكومة المؤقتة

للجمهورية الجزائرية التي أصبحت هي قائدة الثورة وهي المسيرة لها في كل المجالات، وقد أشرت من قبل إلى أن الشيخ أكد بأن المصريين لم يكونوا متحمسين لذلك.

وتم إعلان إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ولبس شيخنا لباس الوزارة في أشرف حكومة في تاريخ الجزائر على رأي المرحوم أخينا مولود قاسم إذا لقد أصبح توفيق المدني وزير للشؤون الثقافية في أول حكومة جزائرية تألفت منذ سقوط الدولة الجزائرية في 1830 وقد كان قبل ذلك عين عضوا رسميا في مجلس الثورة الذي أشرنا إليه آنفا ورغم أن منصبه كان وزيرا للثقافة إلى أنه كان يصطحب الرئيس فرحات عباس في كل تنقلاته وفي كل اتصالاته برؤساء الدول الشقيقة والصديقة وكان تقريبا الناطق الرسمي إذ هو الذي يعقد الندوات الصحفية ويجيب على أسئلة الصحفيين كما كان من قبل من إطارات الوفد الخارجي لجبهة التحرير وللتاريخ نسجل أن شيخنا بعد أن تولى منصبه في الحكومة كوزير للثقافة عمل على مد يد المساعدة للطلبة الجزائريين الموزعين في مختلف الجامعات والثانويات لدى الدول الشقيقة والصديقة بل وسعى سعيا حثيثا وخاصة لدى الدول العربية للحصول على أكبر عدد ممكن من المنح الدراسية وكلما استجابوا له إلا وطلب أكثر، وأنا أحد الذين استفادوا من هذه المنح وهو الذي شخصيا أكدّ عليّ بأن التحق بسوريا للدراسة في جامعة دمشق بعد أن طلبت الإذن من قيادة الولاية الثالثة في تونس التي كنت أنتمي إليها عسكريا.

وبعد استعادة السيادة الوطنية أسندت له وزارة الأوقاف في أول حكومة شكلها الرئيس بن بلة ومكث فيها سنتين أو ثلاث سنوات وفي عهد هذه الحكومة ألحقت مدارس جمعية العلماء

بالتعليم العام وفرنستها بعد أن كانت معربة وأدمج الصحيح في المزيف، وكأني بالشيخ قد اعتراه نوع من الشعور بالذنب إذ رأى ما بناه ورفقاؤه طوال السنوات العجاف من العهد الاستعماري من مدارس قضى عليه بجرة قلم في عهد السيادة الوطنية، فحاول أن يتدارك ذلك في حدود صلاحياته وإمكاناته في وزارة الأوقاف فأنشأ ما سمي آنذاك بمعاهد التعليم الديني وكانت تلك المعاهد الحجر الأساسي للتعليم الأصلي الذي قضى عليه فيما بعد كما قضى على مدارس جمعيات العلماء وحزب الشعب وبنفس العذر أو الحجة "لتوحيد التعليم" ومن الغريب والعجيب أن الأستاذ توفيق المدني ضرب عليه بعد ذلك نوع من الحصار السياسي عن عمد وسبق إصرار وأهمل إهمالا كليا حتى من أغلب مواطني هذا البلد وحسب معلوماتي لم يطلق اسمه على أي مؤسسة علمية بينما أخذ غيره وهم دونه في العلم والجهاد كل التمجيد والتخليد والذكر.